الإمام محمد البشير الإبراهيمي واللغة العربية: نظرات وعبرات

أ.د عبد العزيز دخان

ملخص البحث

لقد كان الإمام محمد البشير الإبراهيمي أحدَ أساطين اللغة العربية في زمانه، وأكثرَ المدافعين عن حياضها، والمغرمين بها، ظهر ذلك واضحًا جليًّا في خطاباته، وكتاباته، وكم تفتّق ذهنُه في خدمتها عن نظرات، وكم سكب حزنًا عليها من عبرات، وقد جال وصال في مجامعَ للعربية كثيرة، باذلا النصحَ لإخوانه من أدباء العربية ورجالها، من أجل رفعة شأن هذه اللغة العزيزة.

وسعيا وراء بيان هذا الجهد الذي لم يحظَ بالكثير من البيان والتوضيح، وبمناسبة هذا المؤتمر الكبير الذي سوف يجمع محبّي هذه اللغة وعشّاقَها، ومن أجل ربط الماضي بالحاضر، وأداءً للأمانة التي حمّلها ذلك السلفُ لهذا الخلَف، جاءت فكرةُ بسط تاريخ هذا الأديب العملاق الكبير، وتجلية أثره في الدفاع عن هذه اللغة، بلسانه القوّال، وفكره الجوّال، وقلمه السيّال.

وسوف يتمّ ذلك كلّه من خلال الحديث عن نشأته العربية الفصيحة، وآثاره العلمية والعملية، وثناء العلماء عليه، ورحلاته في شأن هذه اللغة الجميلة، ونداءاته المتكررة. وبمختلف الوسائل. إلى إحلالها المكانةَ التي تستحقّها، وبيان أنّ وجودنا من وجودها، وبقاءَنا في بقائها، مرورًا بنماذجَ من النصوص العربية التي دبّجتها يراعةُ هذا الأديب الكبير.

النشأة العربية الفصيحة:

في أسرة معروفة بالعلم والدين، بقرية رأس الوادي بمحافظة سطيف. إحدى حواضر الشرق الجزائري. ولد الإمام الأديب محمد البشير الإبراهيمي يوم ١٤ من شهر يونيو، سنة ١٨٨٩م. وهي السنة نفسُها التي ولد فيها الشيخُ الإمام عبد الحميد بنُ باديس، حيث لا يفصلُ بينهما إلاّ خمسةُ أشهر وعشرون يوماً. وحفظَ القرآن في آخر الثامنة من عمره، وحفظ معه في تلك السنّ المبكّرة عدّةَ متون علمية مطوّلة، منها ألفيةُ ابنِ مالك وتلخيص المفتاح، ولم يبلغ الرابعةَ عشر من عمره حتى كان يحفظُ ألفيَتَي العراقي في الأثر والسير، ونظمَ الدول لابن الخطيب ومعظمَ رسائله المجموعة في كتابه (ريحانة الكتاب)، ومعظمَ رسائل فحول كُتّاب الأندلس، ومعظمَ رسائل فحول كُتّاب المشرق، مع حفظ المُعلّقات والمفضليات وشعرِ المتنبي كلّه، وكثيرٍ من أشعار الآخرين مثلِ ابن الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس، وحفظ كثيراً من كتب اللغة والأدب كاملةً كالإصلاح والفصيح والكامل والبيان وأدب الكاتب، وحفظ وهو في تلك السنّ أسماءَ الرجال الذين ترجم لهم المقَّري في (نفح الطيب) وأخبارَهم وكثيراً من أشعارهم، وكان يَحفظُ عشراتِ الأبيات من سماع واحد، حتى كان عمُّه لا يتركُه ينامُ حتى يحفظَ على يديه كلَّ ليلة مائةَ بيت من الأبيات المُفرَدَة أو من المقاطيع، فإذا طلب المزيدَ انتهره وقال له: إنّ ذهنك يتعبُ من كثرة المحفوظ كما يتعب بدنك من حمل الأثقال.

ولم يبلغ العشرين من عُمره حتى كان قد قرأ كثيراً من المُصنّفات الكبيرة مثلِ كُتُبِ الجاحظ كلِّها، والأغاني للأصفهاني، والكاملِ للمُبرِّد، ومُقدّمةِ ابنِ خلدونَ والعقدِ الفريد لابن عبد ربّه، وبَهجةِ المَجالسِ لابن عبد البر، والعُمدةِ لابن رَشيق المَسيلي، وكُتُبِ العسكري، والجُرجاني، والآمدي وقُدامةَ بن جعفر، كلُّ هذا وهو لم يبلُغِ العشرين من عُمُره(١).

ولمّا جاوز البشيرُ الإبراهيميُّ العشرينَ من عُمُره ارتحلَ إلى المدينة المنوّرةِ سنة ١٩١١م، مُلتحِقاً بوالده الذي سبقهُ إليها سنة

تلمسان، 1937